خادم امين

رواية افرنسية عربها بعض المتصرف الاديب بشاره خليل الخوري احد تلامذة كليتنا

كانت جبال القفقاز في اوائل القرن التاسع عشر مستقلةً بعد وان كانت الاراضي المحيطة بها من كل جانب خاضعة لحكم الروس. وكان سكان تلك الجبال ينقسمون الى قبائل متعدّدة مختلفة اللغات والعوائد والصوالح لا جامعة بينهم سوى شراسة الاخلاق وحب الغزو والاستقلال. وكانت قبيلة الجنكز اكثرهم عددًا واشدّهم بأسًا. رجالها حسان الشكل اقوياء القلب متوقدو الذهن. غير انهم يحبون السلب والنهب. لا يرأفون بمخلوق ولا ينعطفون على مألوف. ولا يزالون يشنون الغارات على العساكر الروسية المقيمة على « الخط ». لان الدولة المسكوبية كانت قد فتحت طريقًا في تلك الجبال وبين تلك القبائل المتوحشة لتصل بهما اقاليمها الاوربية واملاكها الاسيوية. واقامت على حراستها جنودًا يسكنون قليعات قريبة بعضها من بعض تتسلسل على شكل « خط » متقطع حتى بلاد اكرج. ومع ذلك لم يكن المسافرون ليجترئوا على قطع المسافات الفاصلة بينها ان لم تصحبهم بعض الجنود فكانت فرقة من المدفعية يدعمها عددٌ عديد من خيالة « القوزاق » ترافق المسافرين مرتين في كل اسبوع وتحمل بريد الحكومة. وكان قائد الجنود القائمين باعباء هذه الخدمة مقيمًا في قليعة مشيدة على مدخل الجبال اصبحت مع تمادي الزمن مدينةً آهلة بالسكان واسمها فلادي قفقاز اي مالكة القفقاز سميت بذلك لمناعة موقعها

فاتفق يومًا ان الماجور كسكنبو من الاي قولوجدا قُلّد الامر على قلعة تَرْس في مضائق القفقاز وكان شريفًا من اسرة رومية الاصل شجاعًا مقدامًا لا يبالي بخطر. فقصد مركزه ولم يكن معهُ غير خمسين فارسًا وكان قد اعلن امره ونشر سره قبل انجازه. فما علم بهِ الجنكز حتى جمعوا قواهم وخرجوا يسدون في وجههِ الطريق. فكمن لهُ منهم سبعمائة فارس وفاجأوه على مسافة يسيرة من مدينة مُزْدُك (١ فلمّا رأى القائد ان الرجوع على الاعقاب اصبح من المحال وان لا نجاة الّا بالقتال امر فرسانه

١) وهي مدينة على نهر التيرك (Terek) في سفح جبال القفقاز شمالاً

فترلوا من جيادهم واخذوا يصدون هجات العدو وهم يتوقعون النجدة من قلعة لم تكن بعيدة منهم . ولم يكن لهم بالنجاة ضمانًا لان القفقازيين يعجزون عن مقاتلة جنود منظمة وان كان افرادهم شديدي البأس . الّا انَّ عددهم الوافر ورصاصهم الصائب مكّناهم يومئذٍ من الفوز والانتصار . فبعد قتال عنيف قتلوا من الروس ما يربي على نصف عددهم ولبث الباقون متحصنين وراء جثث خيولهم يطلقون طلقاتهم الاخيرة . فعندما صاح الجنكز : سلّموا الينا القائد والّا هلكتم عن آخركم شرّ هلاك . فتقدم حينئذٍ القائد كسكتبو ودفع بنفسه الى الاعداء ضنًّا بحياة جنوده الباقين فما ظفر به القفقازيون حتى اقبلت النجدة المنتظرة . فلما رأوها ولّوا مسرعين بأسيرهم لان غايتهم انما كانت الانتفاع منهُ وطلب مبلغ عظيم فدًى عنهُ

وكان إيفان خادم القائد متخلفًا عن الجنود في وقت الموقعة مختبئًا في مغارة ومعهُ بغل عليهِ ثقل سيده . فلما انتهى القتال لقيه العساكر الروس فاخبروه بما كان من امر الماجور فعزم للحال على اللحاق بهِ ومشاركته الأسر وتوجه ببغله الى الجنكز يتقفى آثار خيولهم . ولما كاد ظلام الليل يخفيها صادفه رجل منهم متخلف عن اصحابه فذهب بهِ اليهم

فلا تسأل عما خالج قلب كسكتبو من الفرح لما رآه من كرم اخلاق خادمه الامين الذي اتى يقاسمه الشقاء والعناء . أمّا الجنكز فاخذوا ما كان مع ايفان وتقاسموه ولم يتركوا للقائد سوى عود كان بين الاثقال فردوه على صاحبه استهزاء . واراد كسكتبو ان يرمي فتعه خادمه وقال : لا تيأس سيدي فان اله الروس عظيم (١ وان صالح هؤلاء اللصوص ان يبقوك ولا يلحقوا بك شرًّا فتصبّر

وبعد مضي بضع ساعات عزم الجنكز على استئناف السير . غير ان رجلًا منهم قدم عليهم وانذرهم ان الروس يواصلون الزحف الى الامام وانهُ يرجح ان جنود باقي القلع ستشاركهم في مطاردة الجنكز . فتشاوروا رؤساؤهم وكان جل اهتمامهم اخفاء محلتهم ليحافظوا على اسيرهم ويبعدوا عن قراهم عساكر الاعداء وينجوا من انتقامهم . فتشتت شملهم وذهبوا طرائق وابقوا لحراسة الاسيرين عشرة رجال من المشاة ولبث

(١ وهو مثل سائر فيما بين الروس يقولونه في ساعة الخطر

مئة من الفرسان متجمعين ثم ساروا في وجهة مخالفة لوجهة كسكنبو وحراسه . وترعوا من رجل كسكنبو جزمته المسمرة خشية ان تفضحهم آثارها واضطروه وخادمه ان يمشيا حفاة الارجل ولكن المسير بين الشوك وعلى الصخور ادمى رجلي القائد واضناه حتى رأى اللصوص ان يُرجعوا اليه حذاءه ليتمكن من مواصلة الهرب معهم

ولما وصلوا الى قرية من قراهم ظهر لهم ان الاسير اعيا حتى انهم خافوا على حياته . وكان الغم قد اضناه وهزله اكثر من تعب المشي فرفقوا به واراحوه واركبوه فرساً غير انهم اخذوا يتنقلون به من قرية الى قرية ومن واد الى واد حتى تخفى اثاره على الروس . وربما ربطوا عينيه بعصابة مدة المسير ليتعذر عليه اطلاع اصحابه على مقامه . وكانوا يحسنون معاملته طول المسير ويقدمون له ما احتاج اليه من الطعام . ويأذنون له بالراحة ما شاء . غير ان هذه المعاملة لم تدم فما وصلوا الى القرية البعيدة التي اختاروها ليحبسوه فيها حتى اذاقوه من انواع النكال امرّها . فكبلوه بالحديد وغلوا يديه ورجليه وعنقه بسلاسل ثقيلة . امّا إيقان فكانت قيوده اخف تسمح له بالقيام بخدمة سيده

فقضى القائد على تلك الحال اياماً كان فيها عرضة للاهانات والشتائم فكان كل ما اشرق النهار دخل عليه احد الجنكز العارفين باللغة الروسية والحّ عليه ان يكتب الى اصحابه ويحرضهم على دفع ديته وقيمتها عشرة الاف روبل . وكان القائد المسكين عاجزاً عن دفع هذا المبلغ . الّا انهُ لما الحّوا عليه وعد الترجمان بتلبية طلبهم فخرج هذا من عنده ولبث اياماً لم يرجع الى الاسير . وكانهم انتهزوا فرصة هذه الايام ليزيدوا في تعذيبه فقطعوا عنهُ الاكل وترعوا من تحته البساط الذي كان جالساً عليهِ والوسادة التي كان يتكئ عليها لينام . ولما رجع الرجل المذكور اسرّ الى القائد انهم عازمون على قتله فراراً من المصاريف الباهظة التي كانوا يتكبدونها بسببه ان لم يُلبِّ الروس طلبه . وانما كانت غايتهم من معاملتهم هذه القاسية اجبار القائد على طلب الدية بالحاح . فكتب كسكنبو كما ارادوا وترجم الرجل الكتاب لرؤساء القبيلة فرضوا به واخذوا على انفسهم ان يرسلوه الى قائد الجنود الروسية فتحسنت منذ ذاك حالة الاسير ولم يبقَ مقيّداً الّا بسلسلة واحدة . وكان سخان كسكنبو شيخاً اسمهُ ابراهما لهُ من العمر ستون عاماً . وكان طويل القامة ذا منظر مخيف يدل على ما طبع عليه من

القساوة والفظاظة وقد اختاروه سجاناً لما عهدوه فيه من البغض والحنق على الروس اذ قتلوا له ولدين في الحرب

وكان في بيت ابراهما المذكور ارملة احد ولديه لها غلام حديث السن وكانت هي ايضاً على جانب عظيم من قساوة القلب وشراسة الطباع . فحدّث عما كابده القائد المسكين من الالم بين ذاك القوم ولا حرج . غير ان لطف الصبي وما كان يظهره من عواطف الشفقة خفف وطأة مصابه . فقد كان الغلام كلف بالسجين حتى ان التهديدات لم تقوَ على منعه من مؤانسته كلما سنحت له فرصة . وكان قد سماه بلفظة « قنياق » ومعناها عندهم الصديق والضيف فاخذ يقاسمه سراً كل ما نالته يداه من الثمار ولما مُنع القائد القوت حنَّ الولد عليه فكان يحتال حتى يأتيه بما يأكل من خبز وفاكهة

مضت الاشهر بعد ارسال الكتاب دون حدوث امر ما وكان إيثان في اثنائها توصل الى استعطاف خاطر المرأة والشيخ او بالاحرى الى اجبارهم على التعلق به لمعرفته تهيئ المآكل والمشارب اللذيذة . ولكي تزداد ثقتهما به اكثر من التهريج فكان يبدع كل يوم حيلة ليضحك اصحابه وكان ابراهما يطرب كل الطرب حينما كان ايثان يرقص رقصة القوزاق . فجعل كلما زاره بعض سكان القرية حلّ قيود ايثان وامره بالرقص فيلبي طلبه بطيبة خاطر ويزيد على حركات الرقص قفزات غريبة يستنبطها كل مرة ليضحك الزائرين . وما زال على تلك الحال حتى نال الاذن بالتجول في القرية مطلق الحرية . وكان اذا طاف بين البيوت لحقه الاولاد وهو يطربهم بلطيف مداعبته وظريف حركاته ولما كان يعرف اللغة المغولية لم يصعب عليه تعلم لغة القوم وكانت قريبة منها

اما الماجور فكان يضطر هو ايضاً ان يضرب بالعود ليطرب الاعلاج الذين كان بينهم وكانوا في اول الامر يفكون اغلال يده اليمنى ليتمكن من الضرب ولكن المرأة لاحظت بعد ذلك ان السجين اذا اراد التسلي ضرب بالعود احياناً وهو مقيَّد . فاخذوا يجبرونه على الدق دون حل قيوده . فاصبح العود مدعاة للعذاب . وما كان يعلم اذ ذاك ان آلته ستكون يوماً وسيلة تساعده على نجاته من الاسر

تلك النجاة كانت موضوع افكار الاسيرين وجل رغائبهما . فما اكثر ما خطر لهما من الحيل لبلوغ مأربهما فضاقت عنها ذرعاً لشدة سهر الجنكز عليهما فكانوا في اول الامر يقيمون على باب الحبس خفيراً كل ليلة . ثم تراخوا عن الحفارة فكانت المرأة

وصغيرهما يرقدان في غرفة بالقرب من غرفة الرومسيين ولا يبقى مع الاسيرين سوى ابراهما وفي جيبه مفاتيح القيود يحفظها ويتيقظ لادنى حركة . وكانت عيشة القائد تزداد شقاء ومرارة من يوم الى يوم ولما لم يرد جواب على كتاباته المتكررة حنق الجنكز عليه وجعلوا يردون اليه يقذفونه بالشتائم وينذرونه بأليم العذاب او يحمونه عن الاكل حتى ان ابراهما ضرب حفيده يوماً ضرباً مبرحاً لانهُ جاد على السجين ببعض الاثمار اليابسة

وكان الكل مع ذلك يثقون بكنكبو ثقةً عمياء ويستشيرونه ويجعلونه حكماً فيما بينهم اذا اختلفوا . واليك بعض ما رفعوه اليه من الدعاوي الغريبة

سلّم بعض سكّان القرية خمسة روبلات الى رفيق لهُ كان مسافراً الى قرية اخرى وطلب اليه ان يدفعها الى رجل منها . فمات برذون المسافر في الطريق فرأى ان لهُ حقاً بحفظ الخمسة الروبلات تعويضاً عن الخسارة التي لحقت به . فلم يوافق هذا الحكم الغريب صاحب المال فما رجع المسافر الى القرية حتى علا القال والقيل بين الخصمين . فحشد كل واحد منهما اقاربه واصحابه وكادت الحال تفضي بهم الى القتال لو لم يتلافَ عقالهم الشرّ ويجعلوهم على تحكيم السجين في المسألة . فأخرج من بيته وأصعد على السطح . وكان الخصوم واقفين بانتظاره فلما رأوه عمّ الجمع سكوت عظيم كأن على رؤوسهم الطير . فأعجب به من قاضٍ مقيد واخصام مسلحين بالطبنجات والخناجر قاموا يترافعون امامه ويترقبون منهُ حكماً قاطعاً لا مردّ عليه

فبذل كنكبو جهده في اقناع صاحب الفرس فلم تنجع حججه فيه فاراد على الاقل ان ينتقم للعدل انتقاماً يسيراً ويضحك الحاضرين من المدّعي . فقال لهُ : أعجب منك يا رجل أُتراك لو كلفك صاحبك بحمل السلام الى غريمه بدلاً من الخمسة الروبلات أما كان مات فرسك ؟ فاجاب المعاند : لعله كان ذلك . فقال القائد : فما كنت فعلت والحالة هذه بالتحية ؟ أما كنت تضطر الى الاكتفاء بها تعويضاً عن خسارتك ؟ فأحكمُ اذن ان ترجع المال الى صاحبه وتكتفي بقبول التحية والسلام منهُ »

فما تُرجم القضاء حتى استغرب الحضور ضحكاً وضجوا استحساناً لما رأوه من حكمة ضاهت حكمة سليمان واقرّ المحكوم عليه بعدل الحكم وقال : كنت عالماً ان الحكم يكون عليّ ان ترافعنا امام هذا السجين اللعين

ولكنّ الثقة التي ابداها اللصوص لسجينهم لم تكن لتخفف شقاء حالته . مضت

عليه سنة ولم يرد اليه جواب على رسالاته ولما كان في تلك البرهة محروماً حتى من ضروريات المعيشة وهنت قواه وضعفت صحته واخذ اليأس يستولي عليه. اما إيڤان فان ابراهام ذات يوم اغلاله فجعل الخادم يغدو ويروح في القرية بلا معارض فتعجب كسكنبو من امره وسأله عن سبب ذلك الانقلاب. فاجابه ايڤان مولاي قد خالجني فكر منذ ايام اريد ان استشيرك عليه. سمح لي ان اغيّر جنسيتي المسكوبية وانضم الى اهل القبيلة فاصبح كواحد منهم. قال كسكنبو: هل اعتراك جنون. قال ايڤان: لا وحقك يا سيدي لست بمجنون وانما في عملي هذا وسيلة لخلاصنا فان كبير القوم اكد انهم اذا ما اوثقت عرى الاخاء معهم وصرتُ جنكزيًا لا يعودون يقيدونني فأصبح حرًا وامكن من مساعدتك وخدمتك. ولعلي انجيك يوماً واياي من هؤلاء الاوغاد فاعود اذ ذاك الى جنسيتي ولا اظنّ ان احداً من مواطنيّ يلومني. فتحيّر القائد من امره ولم يدرِ ما يقول. أينكر على خادمه عملاً كان يحسبه خيانة لوطنه ام يأذن له باستعمال حيلة ربما آلت الى خلاص كليهما. فلما رأى ايڤان سيده متردداً قال له: سيدي لست بقادر على طاعتك فلا سبيل الآن الى اخفاء امري وقد كان بودي كتمانه فاني جنكزيّ من يوم فككت اغلالي واسمي قربات فلا بأس في ذلك. فاني حرّ وساحررك ان شاء الله

والحق يقال ان الجنكز وفوا لايڤان ما وعدوه به فاطلقوا له الحرية التامة الّا انهم بعد ذلك خافوا ان يهرب من بينهم ويرجع الى الروس ويعلمهم بمكانهم فيجتاح الروس بلادهم وينتقمون منهم شرّ انتقام. وكانوا يلعنون ساعة دخول ايڤان في مؤاخاتهم. فما عتم ان تغيّروا عليه وظهرت للعيان دلائل انقلابهم وايڤان يطلب سبب ذلك ولا يجد. فبينما يضرب الخماسًا لاسداس اذ جاء اليه بعض الشبان ربطتهم واياه عرى الصداقة فسألوه ان يرافقهم في غزوة ازمعوا عليها. وكان في نيتهم ان يعبروا نهر التِرك (Terek) ويسلبوا متاع تجار قاصدين مدينة مُزدُك فاجابهم ايڤان الى سؤلهم بلا تردد وقد طالما فكر في طريقة اقتناء بعض الاسلحة فظنها الفرصة الملائمة. ثم كان يرى في رجوعه الى مولاه بعد الغزوة برهانًا مقنعًا يفحم من كان يظنه خائنًا. فقاتح كسكنبو في الامر فانكر القائد رأيه. فتناساه الخادم حتى ظن القائد انهُ عدل عن عزمه غير انهُ لما افاق يومًا من رقاده لم يجد ايڤان فعرف انهُ تركهُ ليلًا وسار في اصحابه للغزوة المذكورة

وقد كان يجب عليه ان يحذر من غدر الجنكز وهم اكثر الناس خبثاً ودهاء ويستغرب كيف يستصحبون في مقاتلة الروس روسياً وان اخاً لهم . وانما قصدوا في ذلك قتل ايثان موارية لان دخوله فيما بينهم كان يوجب عليهم مراعاة حقوق الاخاء ظاهراً . فرأوا ان يتحفظوا عليه في المسير ثم يقتلوه في القتال ويوهموا ان الاعداء قتلوه . الا ان الحوادث اتت بما لم يكن في الحسبان . فبينما كانوا في المرصاد يتوقعون مرور القافلة اذ هجمت عليهم كركبة من القوزاق واضطرتهم الى الرجوع على الاعقاب فأنساهم عظم الخطر مكيدتهم وعبروا النهر ثانية مسرعين لا يبالون الا بانقاذ انفسهم من ايدي الاعداء

وكان النهر قوياً كثير المياه فكبا فرس احد الجنكز وهو عابر فجرته الامواج وكادت تودي به لولا ان ايثان البطل اقتحم المياه بفرسه وانتشل الفارس من الغرق غير مبالٍ بحياته وانزله على الشاطئ سالماً . الا ان الروس عرفوا ايثان من بزة العسكرية فصاحوا به : يا للخائن وصوبوا عليه نيران بنادقهم فدافع عن نفسه مدافعة الابطال وعاد بعد ما ابلى احسن بلاء وخدم القبيلة غير خدمة

ولم يتوصل مع ذلك الى استمالة قلوب الجميع غير ان الجنكزي الذي خلصه احضه الرداد واتخذه لهُ اخاً يدافع عنهُ بالنفس والنفيس اما الباقون فازدادوا تحفظاً منهُ لما رأوه من شجاعته ولم يعودوا يعتبرونه كهرج يعجز عن اقتحام الاخطار راتيان الامور العظام . ثم لما كانوا يعاودون النظر في حوادث النزوة المشؤومة كانوا يتعجبون من وجود الروس بالقرب منهم فيظنون ان ايثان يراسلهم ويطلعهم على اخبارهم فرايهم ذلك من ايثان وزادهم حذراً منهُ وسهراً عليه حتى ان ابراهما نفسه خاف ان يحتال وينك اغلال سيده فنعهُ من محادثته ملياً وجعل يضربه اذا عصى امره

غير ان ايثان والقائد استنبطا حيلة مكنتهما من التحادث دون ان يرتاب ابراهما بهما . فكانا اذا ارادا التكلم بشؤونهما امامه يتغنيان بالحان روسية جرياً لعادتهما فيأخذ الماجور عوده ويضرب ويغني ما بدا لهُ ويحسن الغناء الكلام الذي يريد تبليغه صاحبه والاستفهام عنهُ . فيجيبهُ ايثان على اللحن ذاته ويفيده والماجور يضرب على العود كانهُ يوقع عليه غناء بسيطاً . ولما كانا اعتادا قبلاً هذه الطريقة في الغناء لم يفطن احد لحيلتهما . ومع ذلك لم يلتجئا اليها الا فيما ندر

*

بعد مضي ثلاثة اشهر على الحوادث السابقة شعر ايثان بحركة غير مألوفة في الضيعة فقد كان ورد اليها بعض البغال محملة بارودًا ثم جعل الرجال ينظفون الاسلحة ويهيئون الخرطوش فعرف ان بعض القبائل المجاورة انخرطت تحت لواء الروسيين ورُخصت لهم ببناء حصن في اراضيها وان اصحابه عزموا على استئصال شأفتها وابادة العساكر الروسيين قاطبةً . وبعد ايام قلائل لما خرج ايثان من بيته صباحًا الفى الديار خالية فارقها كل من له طاقة على حمل السلاح فاخذ يتجوَّل في انحائها فزاده ذلك يقيناً بما كان رآه من قلة ثقة الجنكز به . فكان الشيوخ يبتعدون عنهُ وينفرون من محادثته وتجرأ صبي وقال لهُ ان اباه يريد قتله . فرجع الخادم كئيبًا مهمومًا

وانهُ لكذلك اذ رأى على سطح احد البيوت امرأة تومئ اليهِ أن ابتعدْ وهي تشير الى وجهة البلاد الروسية . وكانت المرأة اخت الجنكزي الذي خلصه ايثان

ولما رجع الى البيت رأى ابراها يتفقد اغلال كسكنبر كانهُ يريد ان يتحقق متانتها ومعهُ رجل آخر ابقاه القوم لان الحمّى انهكت قواه واعجزتهُ عن اللحاق باصحابه فجعلوه مساعدًا لابراها على حراسة السجين . فلم يظهر ايثان تعجبه من ذلك . الَّا ان الحالة اصبحت حرجة لانهُ ان كان غياب الرجال من القرية يسهل الفرار فزيادة السهر على الاسيرين تزيده صعوبة . ثم كان الخادم موقنًا ان مرتة قريب لا مناص منهُ لان الجنكز سوف يرجعون بصفقة خاسرة فيقتلونه حتمًا فلم يبقَ لهُ سوى الاختيار بين احد الامرين . فاما ان ينجو بنفسه ويترك سيده واما ان يخلصه بلا ابطاء . ولكن الخادم الامين كان يفضل احتمال الف ميتة ولا يترك سيده

وكان كسكنبر يئس من النجاة فوقع في حالة من الحيرة تشبه الجنون فكان يلازم الصمت لا ينبس ببنت شفة . اما ايثان فكان في فرح اعظم من ذي قبل يهيئ الطعام باعتناء فائق وهو يترنم بالحان روسية يضمنها اقوالًا يوجهها الى سيده لينشطه :

جاء الوقت المنتظر هَيْ لِلي هَيْ لِلي وقت بهِ نخلص اذ غدرت هَيْ لِلي هَيْ لِلي
غدًا نسير هي لِلي هي لِلي على طريق بلدة جبلة هي لِلي هي لِلي
تشجع سيدي ان اله الروس عظيم

اما كسكنبر فكان يجهل مقاصد خادمه وكان ينظر الى الحياة والموت بعين

واحدة فاجاب : افعل ما بدا لك واصمت . وعند المساء طلب الرجل المريض الانصراف لمارض طرأ عليه فلم يُمانع لان ايثان كان قد طيَّب خاطر ابراها وهدأ روعه بمداعبته ومماذحته . وليزيل كل اثر الارتياب من نفس السجان انفرد عاجلًا في آخر الغرفة واطرح على سرير من خشب وتناوم وهو ينتظر ان يغلب النعاس على السجان فينام . ولكن ابراها كان قد عزم على السهر طول الليل فصرف المرأة وابنها الى الغرفة المجاورة واغلق عليهما الباب واتى وجلس على كرسي بازاء سجينه

وكان ايثان يتأمل كل شيء من الزاوية التي كان فيها فكان يرى كلما التهبت النار فأسًا معلقة على الحائط امامه تتلألأ . ثم لاحظ ان النعاس غلب على ابراها فمال برأسه . فظن ايثان ان قد اتت ساعة النجاة فانتصب فأحسّ به السجان وانتهره وسأله عن سبب قيامه فلم يجبه ايثان ولكنه اقترب من النار وهو يتثاءب كأنهُ مستيقظ من سبات عميق . وشعر ابراها ان النعاس يثقل اجفانه فامر كسكنبو ان يضرب على على عوده ليطيّر النوم من عينيه . وكان القائد يمانعه فقدم لهُ ايثان العود وقال لهُ اضرب يا مولاي فان لي معك كلامًا . فاخذ القائد العود وشدّ اوتاره ثم اخذا في الغناء وتبادلا هذا الحديث الهائل :

كسكنبو — هي ليلي هي ليلي ماذا تريد ان تقول ؟ احذر (وكانا يتطارحان محادثتهما بادوار الاهزوجة الروسية الآتية) :

الأمى يقتلني يا ربوع الوطن الأمى يقتلني يا ربوع الوطن
لا تلي هما لا تنزي وهنا قد بكت اعيننا من فراق الوطن

ايثان — هل ترى هذه الفأس ؟ لا تنظر اليها . هي ليلي هي ليلي . لأشقنّ بها رأس هذا الكلب . هي ليلي هي ليلي

دمنا احرقنا فجاسنا زمنا ذاكرين الوطنا يا لبعد الوطن

كسكنبو — ما يجديها قتله نفعًا . هي ليلي هي ليلي . كيف اهرب وانا مكبل بالحديد

عين ماء سكبت في امان وبكت وهي عجماء شكت من فراق الوطن

ايثان — مفتاح الاغلال في جيب اللص

سكني يا مقلتي خلصني من لوعتي سوف تجلى غمتي في ربوع الوطن

كـكنبو — ستصيح المرأة فتفضحنا

غريبي تطرجم لوعتي تفرحهم ليتني أشرهم يا فراق الوطن

ايثان — دح الاقدار تجري . الست مائتاً ؟ هي ليلي هي ليلي . جوعاً وشقاء

وطني لم تنسكا وطني لم تنسكا روحنا تبقى لكما جسنا للكفن

ولما رأيا السجان يميرهما سمعه ضاعفا الصياح والهلهلة وقوي ضرب القائد على العود وقال الخادم لسيده : اضرب لحن القوزاق لارقص واقترب من القأس لا تخف اقترب قرباً شديداً . قال كـكنبو : لك ما تشاء فلعلَّ هذا العذاب قريب الزوال . قال هـذا ثم التفت واخذ يضرب اللحن المطلوب فطفق ايثان يرقص ويصيح . وجعـل القائد كلما اقترب الراقص من القأس خفق قلبهُ قلقاً لان الآلة المطلوبة وان كانت في خزانـة لا باب لها غير انها بعيدة المنال لا تكاد يد ايثان تصل اليها . الا ان الخادم انتهز فرصة مناسبة وانتشل القأس من محلها ووضعها على الارض في ظل جسم ابراها ولما وقع نظر السجان عليهِ كان ايثان قد ابتعد وهو يرقص

طال الرقص حتى اعيا كـكنبو وظن ان ايثان لن يقدم على العمل او انهُ لا يرى الوقت مناسباً فرفع اليهِ بصره فرآه قد اخذ القأس واقترب من اللص ليقتلهُ فارتعـدت فرائصهُ وارتعشت يداه وسقط العود من يده . وفي اثنائها تقدَّم ابراها من النار ورمى فيها عوداً يابساً فتأججت واضاءت الغرفة ثم التفت ورجع الى مكانهِ . فاوتم ايثان حينئذ مقصده لصارعهُ السجان وطرح الصوت رهذا ما كان الخادم ينتبه على حذرهِ . فلما رأى من اضطراب القائد ما كان ورأى السجان ينتصب وضع القأس خلف كرسيهِ واستأنف الرقص وصاح بسيده اضرب على العود والموت الازرق مـا حلّ بك ؟ فرجع القائد الى النقر ولم ينتبه السجان الى ما جرى وجاس ثانية غير انهُ امرها لن يكفـا عن الغناء ويرقدا . فتقدم ايثان واخذ بيت العود ووضعهُ على المدخنة وتاولهُ القائـد العود فلم يتناولهُ الا انهُ عمد الى القأس وضرب بها السجان على ام راسهِ ضربة هائلة اودت بهِ ولم يتأوه فسقط ميتاً وراسه في النار فاحترقت لحيتهِ فجرَّه ايثان وغطاه ببساط

وكان الاسيران منصتين ليعرفـا ان كانت المرأة متيقظة . واذا بهـا وقد اعجبها السكوت الذي ولي الرقص والغناء قد فتحت باب غرفتها واقبلت عليهما وقالت : ما لكما

ومن اين هذه الرائحة رائحة ريش محروق . وكانت النار قد كادت تنطفئ . فرفع ايثان فأسهُ على المرأة ليضربها فحولت رأسها فأتت الضربة في صدرهـا فصاحت وسقطت فانثنى عليهـا ايثان فما وصلت الشفية الى اقدام كـكنبو حتى فارقتهـا روحها . فارتاع القائد من مقتل لم يكن في الحسبان . اما ايثان فتوجه الى غرفة الصبي فوقف امامه الماجور وقال لهُ : الى اين تذهب ياشيم ؟ اوَ تقدم على قتل ولد لم أرَ منـهُ غير اللطف والوداد . والله لئن كان خلاصي بقتلهِ فلتهلكنَّ اذا رجعنا الى روسيا ولم تُجدِك اماتتك وخدمتك نفعاً . قال ايثان : في روسيا تفعل ما بدا لك اما هنا فلا بدَّ من تتميم مقاصدي . فجمع الماجور قواه ومسك ايثان بثيابهِ كانهُ يريد منعهُ من المرور وقال : ان قتلتهُ او مسـت شعرة من راسهِ سلَّمت نفسي الى ايدي الجنكز فتصبح قـاومتك بلا جدوى . فقال ايثان وهو رافع فأسهُ المتقطرة دماً : الى ايـدي الجنكز . والله لا ياخذونك حيًّا . لاقتلنَّهم واقتلنَّك واياي قبل حلول هذا الامر . فان الولد قـادر على اهلاكنا اذا صرخ وفي الحال التي انت فيها لا طاقة لك بردّ اضعف النسوة عنك . قال كـكنبو : قف ياغليظ الكبد فلتقتلنيَّ قبل ارتكاب هذا الاثم الفظيع . ولكنـهُ لم يقوَ على مسك الخادم من شدة ضعفهِ وثقل قيوده فدفعهُ ايثان وتخلص منهُ فسقط القائد المسكين على الحضيض وكاد يغشى عليهِ من الدهشة والغم . وبينما كان يحاول الوقوف كان يصيح : بالله عليكَ يا ايثان إلَّا رحمت هذا البريء . ثم لما ثابت اليهِ قواه اسرع الى اغاثة الولد فما بلغ الباب حتى التقى بايثان راجعاً وقد اتم قصده . فاندفع الماجور يؤنبهُ تانيباً عنيفاً فاجابهُ ايثـان : مولاي قد تم الامر فلا تدع الوقت يذهب سدى ولا ترفع صوتك . قد جرى ما جرى فلا سبيل الان الى الرجوع الى الوراء . ومن هذه السـاعة الى ان نتجر كل رجل يعارضني فهو مائت وكل من دخل علينا فهو مقتول لا محالة رجلًا كان او امرأة او صبياً . عدوًا ام صديقاً . واخذ ايثان اذ ذاك يطلب مفـاتيح الاغلال فلم يجدها لا في جيب السجان ولا مع المرأة ولا في الاماكن التي ظن انها مخبأة فيها والقائد مع ذلك يتوجع ويتحسر غير مبالٍ بموقفهِ الحرج والخادم يقول لهُ : اولى بك ان تتوجع على فقد مفتاح القيود . مالك تبكي على مثـل هؤلاء الاوغاد الذين عذبوك خمسة عشر شهرًا ؟ قد ارادوا قتلنا فقتلتهم فما عليَّ ؟ ليت الجحيم يبتلعهم جميعاً

ولما لم يجد ايثان مفتاح القيود فكر في كسرها والَّا اصبحت المذبحة التي ذبحها

بلا فائدة. فاخذ الفاس وتوصل الى فك الحلقة التي حول المعصم واما الحلقة التي حول الرجل فلم يستطع فكها وخاف ان يجرح مولاه ان شدّ عليها بكل قواه . وكان الليل قد مضى منهُ شطر عظيم فاضحى موقفهما خطراً حرجاً. فعزما على السفر دون تاخر فعلّق ايثان قيد الماجور بنطاقهِ حتى لا يعيقهُ . ووضع في كيس قطعة خاروف من بقايا عشاء البارحة . وتسلح بخنجر السجان وطبنجتهِ . والبس الماجور فروته ثم خرجا يهدو . فطافا حول البيت لئلّا يلتقيا باحد ثم سارا في طريق الجبل تاركين الطريق المؤدية الى مزدك لعلمهما بان الجنكز سيطاردونهما من تلك الجهة . فسارا باقي الليل في الجبال ولما طلع الفجر دخلا غابة كانت في رأس الجبل فسترتهما عن العيون . وكان شهر شباط قد كسا الارض ثلجاً وكان الثلج في الليل وحتى الظهر جامداً فاستطاعا المشي عليهِ بلا صعوبة غير ان اشعة الشمس ليّنتهُ فجعل المسافران يغرقان فيهِ كلما خطوا خطوة . فتعسر المسير وبطؤ . وعند الظهر وصلا الى وادٍ عميق يجري في قعره جدول ماء على ضفته سبيل مطروق يشبه ان المكان آهل . فعزما على الوقوف حتى يجنهما الليل خوفاً من الجنكز واراحة للماجور فلجأا الى بعض الصخور التي كانت هناك بين الثلوج فقطع ايثان اغصان صنوبر وجعلها فراشاً اطرح القائد عليهِ ليستريح . ثم جعل يتفقد المكان ليعرف وجهتهما فرأى ان لا مخرج من ذلك الوادي الا بسلوك حافة الجدول المطروقة لان جبالاً شاهقة كانت تكتنفهُ ولا منفذ فيها سوى ذاك الطريق

وكاد الليل ينتصف وقد تجمد الثلج فنزلا في الوادي وكانا قد اشملا الاغصان حتى يتدفأا ويهيئا طعاماً كانا اليهِ في حاجة ماسة . فأكلا وشربا ماء الثلج ممزوجاً بجرعة من العرق ثم عبرا الوادي وحسن الطالع لم يصادفا احداً فيهِ واخذا يسيران على ضفة النهر في المضيق بين الجبال الشائخة وهما يسرعان خيفة ان يفضح امرهما ولم يخرجا منهُ الا عند الساعة التاسعة صباحاً وعندها شخص لهما عن بعد من وراء قمم جبال متداخلة في بعضها وقليلة الارتفاع برّ روسيا الفسيح الارجاء كانهُ بحر متباعد . ولا تسلْ عما خالج فؤاد الماجور من الفرح امام ذاك المنظر . روسيا روسيا تلك اللفظة الوحيدة التي خرجت من فيهِ . ثم جلس المسافران ياخذان من الراحة نصيبهما ويمتعان العين بمشهد الوطن العزيز ويفرحان بالخلاص القريب . غير ان رجاء السعادة كان يمتزج في صدر القائد بذكر الفاجعة الهائلة التي شهدها وكانت قيوده وثيابهُ المتلطخة دماً لا تزال تجدده . فاخذ

ينظر الى غاية السفر ويقدّر مصابهُ ومشقة المسافة التي كان يلزمهُ ان يقطعها والحديد في رجله وساقاه مورّمتان من التعب. فأنساه هذا الفكر الفرح الذي شعر بهِ ورفيقهُ لدى مشاهدتهما ارض الوطن وزاد في عذابهِ عطش شديد. فنزل ايثان الى الماء وكان قريباً لياتيه بما يروي غليله . فوجد عليهِ جسراً مركباً من شجرتين ورأى من بعد بيتاً منفرداً فقصده واذا بهِ مسكن للجنكز يأوونهُ في الصيف. فسرّ الخادم الامين من هذا الاكتشاف ورجع الى سيده وانتشلهُ من بحر الافكار الذي كان غارقاً فيهِ واوصلهُ الى الملجإ وجعل هو يفتش على « المخزن »

ان اكثر سكان القفقاز اقرب حال من اهل البداوة يَنزلون ويُنزَلون وينتقلون من مكان الى مكان ولهذا يحفرون بالقرب من منازلهم سراديب يخزنون فيها مؤنهم ومتاعهم وهذه السراديب على شكل الابار يسدّونها بخشبة او حجر كبير ويغشونها بالتراب ويجعلونها في اماكن لا عشب فيها لئلّا ينبت عليها عشب يختلف لونهُ عما حوله فيعرف السرّ . وقد يتمكن عساكر الروس من الاطلاع عليهِ مع ما يتخذهُ الجنكز من الاحتياطات فانهم يضربون الارض بقضب بنادقهم حول البيت فيعرفون الحفر من دويّ الضربات. فتوصل ايثان الى اكتشاف مخزن البيت فوجد فيهِ بعض سنابل الذرة وعدداً من اواني المطبخ فأوقد ناراً ووضع عليها اللحم الذي معهُ وشوى ايضاً الذرة وكان قد وجد ايضاً بندقاً فاقى بهِ فبعد ما اكل القائد تمكن ايثان من كسر القل الذي كان مقيداً بهِ بعدُ. فاستراح ونام نوماً هنيئاً ولم يستيقظ الّا عند العتمة. ولكنهُ لما اراد المسير تعذر عليهِ المشي لان رجلاه تورمتا وتصلبتا حتى انهُ لم يستطع تحريكهما الا بعناء ورجع مولّم ومع ذلك كان لا بدّ لهُ من السير . فاتكأ على خادمهِ ومشى حزيناً وموقناً انهُ لن يبلغ الغاية المقصودة. غير ان حرارة المشي خففت من اوجاعهِ فمضى الليل كلهُ بين مسير ووقوف وطالما رمى بنفسهِ على الارض وطلب الى رفيقهِ ان يتركهُ وحده . اما ايثان فلم يكتفِ بتشجيع القائد بل كان يحملهُ او يجره جرًّا . وبقيا على هذه الحالة حتى وصلا الى مجاز عبر عليهما عبوره. فوقفا حائرين يتساءلان ينتظران النهار ام يواصلان المسير فلما رأيا ان في انتظار النهار تأخيراً لا يُعوَّض عزما على المرور مع ما وراء ذلك من خطر التدهور. ولكن الخادم اراد ان يرتاد المكان قبل مرور سيده فاخذ ينزل وكسكتبر ينتظر على حافة الصخر في اضطراب لا يوصف . فكان الليل مظلماً وكان

يسمع خرير الماء يجري في الوادي تحت رجليه ودوي الحجارة تتدحرج تحت اقدام خادمه فتسقط في النهر وتهلم القائد بعمق الهاوية. ففي تلك الساعة الحزنة تذكر امه وكانت قد باركته قبل سفره فانعش ذكرها فؤاده وشعر بعاطفة الرجاء تبتسم عن قرب الملتقى فصاح: رباه باركتني فاجعل بركتها خلاصي. فما انتهى من صلاته الحارة حتى رجع ايثان واعلمه ان النقب ليس من الوعورة في الدرجة التي توهماها فنزلا بين الصخور حتى وصلا الى صخر ضيق ومنحن نحو الهاوية وعليه بساط من الثلج زلق فنتح ايثان بفأسه طريقاً في الثلج. ثم رسما اشارة الصليب وخطا كسكتبو وهو يقول: ان مت فلا يكونن موتي عن ضعف العزيمة. لقد اوهنتها الامراض ولكني لاشين الآن ما قدرني الله. وقطعا المزلقة دون عناء زائد. ولستأنفا المسير. وكانت الطرق قد تسهلت وتحسنت وخلت من الثلج ولم يلاقيا احداً حتى طلوع الفجر. فلاح لهما حينئذٍ عن بعد رجلان فتسطحا على الارض حتى يتواريا عن اعينهما

خرجا من تلك الجبال فاصبحت الاراضي جرداء لا غابة تكسوها بل ولا شجرة تنبت فيها الا على شواطئ الانهر الكبيرة وهو امر يقضي بالعجب لخصب التربة في تلك الاماكن. وكان المسافران يسيران على ضفة نهر الصونجا وكان لا بدَّ من قطعه حتى يتمكنا من الوصول الى مرذك. وانهما ليطلبان لهما مخاضة اذ رأيا فارساً يقصدهما فلجأا الى شاطئ النهر واختبأا وسحب ايثان خنجره ودفع الى سيده طبنجته وانما قصدها المدافعة عن نفسيهما اذا تعرَّض لهما الفارس. فلما اقترب منهما عرفا انهُ غلام يناهز الثالثة عشرة من عمره. فهجم عليه ايثان ومسكهُ من عنقه ولوى يده فجندلهُ على الارض فاراد ان يدافع عن نفسه ولكنهُ لما رأى الماجور يقصده وبيده الطبنجة ركن الى الفرار وكان الفرس بلا سرج وفي فمه رسن يقوم مقام اللجام. فاستعان المسافران به ليقطعا النهر وكان ذلك من حسن طالعهما لانهما لولاه لما استطاعا ان يعبرا. فركباه وخاضا في المياه وقد كادت تجر الفرس بشدة سيلها غير انهما وصلا سالمين الى الشاطئ الثاني واذا بعالٍ واقف لا يستطيع الفرس ان يصل اليه فنزلا ليخففا عنهُ وجعل ايثان يسحبهُ بعنف ليصعده على الارض فانقطع الرسن وجرت المياه الفرس فاختبط وحاول الطلوع فلم يقدر فغرق. فأثَّر فيهما فقدانه خير انهما اطمئنا بالًا لما فكَّرا ان ما من احد

يستطيع اللحاق بهما فقصدا هضاباً عليها صخور متفرقة ليختبئا فيها حتى الليل و ياخذا نصيباً من الراحة

ولما قدّرا المسافة التي قطعاها عرفا حدساً ان منازل الجنكز الموالين للروس غير بعيدة غير ان الاتكال على هؤلاء القوم ضرب من الجنون اذ لا يؤمن غدرهم وعلاوة على ذلك كان كسكتبو في حالة من الضعف تمنعهُ من بلوغ نهر التزك بلا مساعدة. وكان قد نفد ما لديهما من الطعام فقضيا النهار في سكوت افصح من الكلام لا يجسران على مبادلة افكارهما وعواطفهما . وعند المساء رأى القائد خادمه يعضّ اصبعه وهو يتأوّه كأنهُ يتندم

فتعجب من علائم اليأس التي ابداها ايثان لاول مرة منذ سفرهما فسألهُ عن سبب ذلك فقال ايثان : مولاي اتيت غلطاً عظيماً . فقال الماجور : سامحك الله . ورسم على صدره اشارة الصليب . فاردف ايثان: قد نسيت يا سيدي ان اخذ الغدّارة المعلقة في غرفة الصبي . ولكن لم يسنح هذا الفكر في خاطري فان توحك وبكاءك منعاني من التبصر في الامر .. اراك تهزأ . امري انها لاحسن غدارة كانت في القرية كلها ولكنت اهديتها لاول من لقيناه من الجنكز لنستميلهُ ونجعلهُ لنا صديقاً . فاني لا ادري كيف يمكننا ان نكمل طريقنا في الحال التي انت فيها

واذ ذاك تغيرت السماء وجعلت ريح روسيا الباردة تعصف وبرد دقيق ينزل عليهما فسافرا عند المساء وهما لا يدريان ايهما اولى ان يرّا ببعض القرى او يبتعدا عنها . وفي اخر الليل طرأ عليهما عارض تعذر معهُ قطع المسافة الطويلة التي كانت باقية عليهما لو ابتعدا عن الاماكن المأهولة . فبينما كانا يتطعان على الجليد المغطى بالثلج خندقاً صغيراً انكسر الجليد وسقطا في الماء حتى الركبتين فتبللت ثياب الماجور . وكان القر شديداً والارض كلها مغطاة بالبرد الدقيق فمشى كسكتبو على هذه الحالة ربع ساعة ثم وقف ورمى بنفسهِ على الارض خائر العزيمة يائساً من الوصول ورأى انهُ من القساوة الوحشية ابقاء ايثان معهُ وهو قادر على النجاة فقال لهُ : يا ايثان . يشهد الله اني الى الان لم آلُ جهداً في استعمال اسباب النجاة التي مددتها لي وقد اصبحت الان بلا جدوى لاني عاجز عن الاستعانة بها . فاذهب الى « الخط » يا عزيزي وارجع الى الايك هذا امري . وقل لخلاني ورؤسائي انك تركتني هنا مطعماً للغربان واني اتمنى لهم

نصيباً خيراً من نصيبي . ولكن قبل ان تتركني تذكر قسمك اذ كنت تسبح في دم اعدائنا . حلفت ان لا تسمح للجنكز ان يمسكوني حيًّا . فبرّ بقسمك . قال هذا وامتد على الارض وتغطى بفروته . فاجابهُ ايثان : لدينا بعد وسيلة وهي ان ندخل على احد الجنكز ونسترضيه بالمواعيد فان غدر بنا لم يعد علينا لوم . فاجهد النفس في الوصول الى المساكن . ولما رأى سيده صامتاً قال : ان الاولى ان اذهب وحدي واحاول استمالة بعض الجنكز فان نجح مسعاي رجعت واياه لاخذك وان لم ينجح وهلكت فدونك الطبنجة . فاخرج كسكنبو يده من تحت الفروة واخذها . فمشاه ايثان ببعض الاعشاب لئلّا يراه احد واستعد للمضي فناداه كسكنبو : يا ايثان اسمع طلبتي الاخيرة . ان عبرت نهر التِرك والتقيت بأمي دوني . . . فقاطعهُ ايثان قائلًا : مولاي سنجتمع في النهار ان شاء الله وان متّ انت فلا امك ترائي ابدًا ولا أمي . قال هذا وسار حثيثاً

وبعد ساعة رأى قريتين او ثلاثاً عن بعد ثلاثة اميال تقريباً وكان قصده ان يجد بيتاً منفردًا ليدخله دون ان يراه احد فيجعل صاحبه رهين مواعيده . فرأى دخاناً متصاعدًا فوق بيت وجده كما يشتهيه . فركض اليه ودخل . فوجد صاحب المنزل جالساً يرقع خفاً له فقال : اني اتيت لاعرض عليك مكسب مئتي روبل واطلب منك حاجة . سمعت بلا شك بما حدث للماجور كسكنبو سجين سكان الجبال فانا خلصتهُ وهربت به خفية وهو الآن مريض بالقرب منك وفي قبضتك . فان ارجعتهُ الى اعدائه شكروا لك فعلك ولم يجازوك . وان اردت ان تنقذه وتضيفه ثلاثة ايام فقط ذهبتُ الى منزلك واتيت اليك بالقيمة المذكورة فداء عنهُ . اما ان ابديت حراكاً لتنادي فلاقتلنّك لا محالة . فأجب والّا . . . قال هذا واستلّ خنجره

فاقنعت لهجة ايثان الجنكزي ولكنها لم تخفه . فدفع الخف من يده وقال بكل سكينة : يا شاب ان في نطاقي مدية ايضاً . وليست مديتك لترهبني . فلو دخلت عليّ مسالمًا لما فكرت ابدًا بتسليم رجل وطأ عتبة بيتي . اما الان فلا اعدك بشيء . فاجلس وقل حاجتك . ففهم ايثان ان صاحبه من ذوي المروءة . فاغمد خنجره وجلس واعاد ما عرضه عليه اولًا . فقال لهُ الجنكزي : وما يضمن لي انك تفي بوعدك . قال ايثان : أودعك الماجور نفسه رهينة صدقي . أو تظن اني ذقت امرّ العذاب خمسة عشر شهرًا واني اتيت بسيدي اليك لاتركه . قال الرجل : قد صدقتك . لكن المال قليل فضاعفهُ . اجاب ايثان

ولمَ لا تطلب عشرة اضعاف ؟ ليس في الطلب عنـاء : انما انا رجل اني اذا وعدت . وعدتك بمئتي روبل لا غير لاني قادر على ادائها . اوترضى ان اخدعك لن وعدتك باكثر من ذلك . قال الجنكزي : قبلت فاذهب وارجع وحدك بعد ثلاثة ايام . قال ايثان : بعد ثلاثة ايام ارجع وحدي هـذا وعدي . وانت اقسم لي ان الماجور ضيفك . قال : اقسمت انك ضيفي والماجور ايضاً من الساعة . فتصافحا وركضا وجاءا بالماجور وقد كاد يموت برداً وجوعاً

اما ايثان فلم يذهب الى منزله بل الى مدينـة اخرى اقرب منها كان قد علم ان فيها عسكر كثيف فجمع بلا عنـاء المبلغ المطلوب فان بعض القوزاق كانوا في الموقعة التي أسر فيها الماجور فجمعوا المال بذلين وسافر ايثان بالدراهم في اليوم المعين ليخلص سيده غير ان ميرالاي الحصن لم يأذن له بالرجوع وحده خوفاً ان يغدر به الاعداء ثانية . فاصحبهُ بعض الكماة خلافاً للعهد الذي كان اعطاه الجنكزي . وقد كاد هذا التحفظ الزائد يودي بحياة كسكنبو . لان صاحب البيت لما رأى عن بعد رماح الفرسان الروس ظن الظنون وحسب الخادم خائناً فحمـل القائد على سطح بيته وربطهُ بعامود ووقف امامه مصوباً اليه غدارته وصاح بايثان حين اقترب منهُ : والله لئن خطوتم خطوة لأقتلنَّ القائد فلديَّ من الرصاص ما يكفي لقتل خمسين رجلاً والخائن الذي يقودهم

فصاح ايثان مذعوراً خائفاً على سيده . لم نخنـك ولم نغدر بك . الزمني بالرجوع مصاحباً وقد اتيت بالمئتي الروبل وفت لك بالوعد

فاجاب الجنكزي فليبتعد العسكر والاَّ اطلقت النار . فطلب ايثان الى الضابط ان يبتعد ثم رجع وحده الى صاحبه ولكنهُ لم يسمح لهُ بالتقرب منـهُ لشدَّة خوفه فالزمه ان يعدَّ المال عن بعد وينصرف . فنزل وقبضه ورجع الى السطح . فاطرح على اقدام كسكنبو وطلب منـهُ العذر على معاملته القاسية وقد اضطر اليها صيانةً لحياته . فاجابهُ الماجور : لست بذاكر سوى اني ضيفك وانك لم تنكث العهد ولكن فك قيودي قبل الاستغفـار مني . غير ان الجنكزي لمَّا رأى ايثان راجعاً قفز عن السطح وغاب كالبرق

وفي اليوم عينه اوصل ايثان سيده الى ما بين اصحابه وقد طالما يئسوا من الالتقاء بهِ . فحدِّث عن فرح العبد الامين وفخره ولا حرج